العتبة العباسية المقدسة
قسم الشؤون الفكرية والثقافية

إذاعة الكفيل

سلسلة من حلقات برامج إذاعة الكفيل

صوت المرأة المسلمة

قلادة النِعَم

إعداد

آلاء طعمه

العتبة العباسية المقدسة
قسم الشؤون الفكرية والثقافية
إذاعة الكفيل

كربلاء المقدسة
FM-95.3MHZ
النجف الأشرف
FM-103.9MHZ
ذي قار
FM-95.3MHZ
radio@alkafeel.net

الكتاب: قلادة النِعَم.
الإعداد: آلاء طعمه.
المونتاج الإذاعي: نبأ شاكر.
الناشر: قسم الشؤون الفكرية والثقافية في العتبة العباسية المقدسة/ شعبة إذاعة الكفيل.
التصميم: علاء سعيد الأسدي.
الإخراج الطباعي: شيماء سامي.
التدقيق اللغوي: موفق هاشم الرحال.
المطبعة: مطبعة دار الكفيل.
الطبعة: الأولى.
عدد النسخ: ٢٠٠٠
شوال ١٤٣٥هـ - آب ٢٠١٤م.

مُقَدِّمَة

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلّى الله على محمدٍ وآله الطاهرين، وسلامٌ على أصحابه البررة المنتجبين واللعن الدائم على أعدائهم أجمعين إلى قيام يوم الدين.

أما بعد:

لا يخفى أنَّنا مازلنا بحاجة إلى تكريس الجهود ومضاعفتها نحو نشر المفاهيم الأخلاقية والتربوية وترسيخ المفاهيم الإيمانية التي تضمنتها رسالة الإسلام لبناء الفرد بناءً فعلياً حقيقياً ليكون ٱنطلاقة سليمة لبناء ذلك الكيان الإنساني الشامخ الذي ماهو إلّا اللبنة الأولى لبناء مجتمع إسلامي راسخ البنيان، عتيد المراسي، لذا ومساهمةً في ذلك جاءت برامج إذاعة الكفيل صوت المرأة المسلمة كسبيلٍ للوصول إلى ذلك وقد أخذت هذه البرامج طريقها إلى أسماع الكثيرين عبر أثيرها وعبر شبكة الإنترنت العالمية صوتاً ولأجل تعميم الفائدة إرتأت الإذاعة إيصال برامجها كتابياً إلى أيدي الذين لم يسعفهم الوقت لسماعها وذلك بطباعة بعض من برامجها وإصدارها ككراس.

;

الحلقة الأولى

وجوب الشكر على النِعَم

وجوب الشكر على النِعَم

يفيض القرآن الكريم ببيانه المعجز ويحث على الشكر في آيات كثيرة منها قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُم﴾(١)، وقوله أيضاً: ﴿بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾(٢) و﴿وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾(٣) ويتبين منها أنَّ أجلَّ عملٍ يطلبه الخالق الرحيم من عباده هو الشكر فيدعو الناس إلى الشكر دعوةً صريحةً واضحةً ويوليهم أهميةً وٱمتيازاً خاصاً بإظهاره، فالاستغناء عن الشكر إن هو إلّا تكذيب للنعم الإلهية وكفر بها، ويهدِّد عزَّ ٱسمه إحدى وثلاثين مرة في سورة الرحمن في قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾(٤) وينذر الجن والإنس إنذاراً مهولًا، ببيانه أنَّ عدم الشكر والإعراض عنه تكذيبٌ وإنكارٌ وجحودٌ، ومثلما يبيّن القرآن الكريم أنَّ الشكر نتيجة الخلق والغاية منه، فالكون الذي هو بمثابة قرآن كبير مجسَّم يظهر أيضاً أنَّ أهمّ نتيجةٍ لخلق الكائنات هو الشكر، ثم إنَّ ما تحمله النعم التي هي الرزق بعينه من صورٍ زاهيةٍ بديعةٍ ومن روائحَ زكيةٍ طيبةٍ شذيَّةٍ، ومن اطعمةٍ لذيذةٍ ومذاقاتٍ طيبةٍ

(١) إبراهيم ٧.
(٢) الزمر ٦٦.
(٣) آل عمران ١٤٥.
(٤) الرحمن ١٣.

ماهو إلاّ مدعاةٌ للشكر، فإذا تناول الإنسان نعمةً لذيذةً، ومن ثم أدّى شكره عليها فإنَّ تلك النعمة تصبح بواسطة ذلك الشكر نوراً وضّاءً له وتغدو ثمرةً من ثمار الجنة الأخروية، وتكرُّماً منه سبحانه وتعالى يمنح تلك النعمة لذةً عظيمةً دائمةً وذوقاً سامياً لا حدَّ له، ولكن إذا لم يشكر المُنعَم عليه ربَّه على النعمة وٱستنكف منها فإنَّ تلك اللذة المؤقتة تترك بزوالها ألماً وأسفاً فتنقلب تلك النعمة التي هي ثمينة كالماس إلى فحمٍ خسيسٍ.

إنَّ مقياس الشكر هو القناعة والاقتصاد والرِّضا والامتنان أمّا مقياس عدم الشكر فهو الحرص والإسراف وعدم التقدير والاحترام، نعم إنَّ الحرص مثلما هو عُزوفٌ وإعراضٌ عن الشكر فهو أيضاً قائد الحرمان ووسيلة الذلِّ والامتهان حتى كأنَّ النملة تلك الحشرة المباركة المالكة لحياةٍ اجتماعيةٍ تُداس تحت الأقدام وتدهس لشدة حرصها وضعف قناعتها إذ بينما تكفيها بضع حبات من الحنطة في السنة الواحدة تراها تجمع ألوف الحبات إذا ما قُدِّر لها، أما النحلة الطيبة فتجعلها قناعتها التامة أن تطير عالياً فوق الرؤوس حتى أنَّها تقنع برزقها وتقدِّم العسل الخالص للإنسان إحساناً منها بأمر الإله العظيم ﷻ، ففي الشكر إيمانٌ صافٍ رائقٌ؛ لأنَّ الذي يبتدئ أكل تفاحة مثلاً بٱسم الله ويختم

أكلها بـ «الحمد لله» إنَّما يعلن الشكر بعمله هذا على أنَّ تلك التفاحة تذكارٌ خالصٌ من يد القدرة الإلهية مباشرةً فهو بهذا القول والاعتقاد به يسلِّم كلَّ شيءٍ جزئياً أم كلياً إلى القدرة الإلهية، فالرزق صورة وضّاءة تستحق الحب والعشق ولنعلم أنَّ أشد الأحياء جوعاً إلى الرزق وإلى أنواعه هو الإنسان، فالحق سبحانه وتعالى قد خلق هذا الإنسان مرآةً جامعةً لجميع أسمائه الحسنى، وأبدَعَهُ معجزةً دالةً على قدرته المطلقة وخَلَقَهُ على صورة خليفة الأرض الذي يملك من الأجهزة الحساسة مايمكّنه من قياس أدقِّ دقائق تجليات الأسماء الحسنى ولأجل كل هذا أودع سبحانه في هذا الإنسان طاقةً لا حدَّ لها وجعله محتاجاً إلى أنواع لا تُحَدُّ من الرزق المادي والمعنوي، وأما الوسيلة التي تمكِّن الإنسان من العروج بها إلى أسمى مقامٍ وهو مقام «أحسنُ تقويمٍ» ضمن ما يملكه من الجامعية فهي الشكر، فإذا انعدم الشكر يتردى الإنسان إلى أسفل سافلين ويكون مرتكباً ظلماً عظيماً، وخلاصة القول أنَّ الشكر هو أعظم أساسٍ من الأسس الأربعة التي يستند إليها سالك أسمى طريق وأعلاه ألا وهو طريق العبودية والحب لله تعالى، أي أنّك أيُّها الإنسان يا صاحب العجز إعلم أنَّ عليك أن تعمل بأربعة أشياء هي: العجز المطلق والفقر المطلق والشوق المطلق والشكر المطلق.

الحلقة الثانية

النهي عن الإسراف

النهي عن الإسراف

يقول تعالى بمحكم كتابه الحكيم: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾[١]، هذه الآية تلقِّن درساً في غاية الأهمية وترشد إرشاداً حكيماً بليغاً- بصيغة أمرٍ قاطعٍ- إلى الاقتصاد، وتنهى نهياً صريحاً عن الإسراف، لإنَّ الخالق الرحيم ﷻ يطلب من البشرية شكراً وحمداً أزاء ما أغدق عليهم من النعم والآلاء إلّا أنَّ الإسراف مُنافٍ للشكر وهو ٱستخفافٌ خاسرٌ تجاه النعمة بينما الاقتصاد توفير مربح أزاء النعمة، فالاقتصاد كما هو شكرٌ معنويٌ فهو توقيرٌ للرحمة الإلهية الكامنة في النعم والإحسان وهو سببٌ حاسمٌ للبركة والاستكثار وهو مدار صحة الجسد بالحمية وهو سبيل إلى العزة بالابتعاد عن ذلّ الاستجداء المعنوي وهو وسيلة قوية للإحساس بما في النعم والآلاء من لذة وهو سببٌ متينٌ لتذوق اللذائذ المخبأة في ثنايا نِعَمٍ تبدو غير لذيذةٍ، ولكون الإسراف يخالف الحِكَم المذكورة آنفاً فإنَّ عواقبه باتت وخيمة، فقد خلق الفاطر الحكيم جسم الإنسان بما يشبه قصراً كامل التقويم وبما يماثل مدينة منتظمة الأجزاء وجعل حاسة الذوق المغروزة في فمه كالحارس والأعصاب والأوعية بمثابة أسلاك هاتفٍ وتلغرافٍ تتم خلالها دورة المخابرة الحساسة بين القوة

(١) الأعراف: ٣١.

الذائقة والمعدة التي هي مركز كيان الإنسان بحيث تقوم حاسة الذوق تلك بإبلاغ ما حلَّ في الفم من المواد وتحجز عن البدن والمعدة الأشياء الضارّة التي لا حاجة للجسم لها قائلةً: «ممنوع الدخول» نابذةً إيّاها بل لا تلبث أن تدفع وتبصق بٱستهجان في وجه كل ما هو غير نافع للبدن فضلاً عن ضرره ومرارته، ولما كانت القوة الذائقة في الفم تؤدي دور البواب الحارس وأنَّ المعدة هي سيدة الجسد وحاكمته من حيث الإرادة والإدارة، فلو بلغت قيمة هدية تُقدَّم إلى حاكم في قصرهِ مئة درجة فإنَّ خمساً منها فقط يجوز أن يُعطى هبةً للحارس لا أكثر كي لا ينسى وظيفته ويقحم في قصرهِ كل مُخِلٍّ عابثٍ يرشوه دراهم أكثر، وهكذا بناءً على هذا السرِّ نفترض الآن ان أمامنا لقمتين لقمة من مادة مغذّية كالجبن والبيض مثلاً يُقدَّر ثمنها بدرهمٍ واحد واللقمة الأخرى هي حلوى من نوعٍ فاخرٍ يُقدَّر ثمنها بعشرة دراهم، فهاتان اللقمتان متساويتان قبل دخولهما الفم بالنسبة إلى الجسم ولا فرق بينهما وهما متساويتان كذلك من حيث إنماء الجسم وتغذيته بعد دخولهما الفم ونزولهما عبر البلعوم، بل يغذّي الجبن الذي هو بدرهمٍ واحد تغذيةً أفضل وتنميةً أقوى من اللقمة الأخرى، فليس هناك فرقٌ إلّا ملاطفة القوة الذائقة في الفم التي لا تستغرق سوى نصف دقيقةٍ، فلنقدِّر مدى ضرر الإسراف ونوازن

مدى التفاهة في صرفِ عشرة دراهمٍ بدلاً من درهمٍ واحدٍ في سبيل الحصول على لذَّةٍ تستغرق نصف دقيقة، وهكذا فإنَّ إثابة الحارس تسعة أضعاف ما يقدَّم إلى حاكم القصر من هدايا تقضي به لا محالة إلى الغرور والجشع وتدفعه بالتالي إلى القول: «إنَّما انا الحاكم» فمن مكافأةٍ بهيّةٍ أكثر ولذةٍ أزيد دفعه إلى الداخل دُفِعَ مسبباً إخلال النظام القائم هناك مضرماً فيه ناراً مستعرة وملزماً صاحبه الاستغاثة صارخاً: «**هيّا أسرعوا إلى الطبيب حالاً ليُسكِّن شدة حرارتي ويُطفئ لظى نارها**»، فالاقتصاد والقناعة هما الانسجام التام مع الحكمة الإلهية والتوافق الكامل معهما إذ يتعاملان مع القوة الذائقة معاملة الحارس ويوقفانها عند حدِّها ويكافئانها حسب تلك الوظيفة امّا الإسراف فلأنَّه يسلك سلوكاً مخالفا لتلك الحكمة فسرعان ما يتلقَّى المسرف الصفعات الموجعة إذ تحدث الاختلاطات المؤلمة في المعدة التي تؤدي إلى فقدان الشهية الحقيقية نحو الأكل فيضطر إلى إثارتها إثارةً مصطنعةً بتنويع الأطعمة مما يسبب عُسراً في الهضم، لقد قلنا إنَّ القوة الذائقة تؤدي دور الحارس، نعم هي كذلك عند الغافلين الذين لم يَسموا بعد روحياً ولم يتقدموا في مضمار الشكر والعروج في مداركه، إنَّه لا ينبغي اللجوء إلى تلك الحاسة الحارسة.

إنَّ القوة الذائقة لدى الشاكرين حقاً ولدى أهل الحقيقة وأهل

القلوب وأولي الأبصار إنَّما هي بمثابة راصدة وناظرة «مفتِّشة» لمطابخ الرحمة الإلهية، فما يتم في تلك القوة من عملية تقدير قيمة النعم الإلهية ومن التعرف عليها بأنواعها المختلفة بما فيها من موازين دقيقة حساسة عديدة بعدد الأطعمة إنَّما هو لإبلاغ الجسد والمعدة بما ينمّ عن شكرٍ معنوي، فلا تقتصر وظيفة القوة الذائقة على رعاية الجسد رعاية مادية فحسب بل هي أرقى حكماً من وظيفة المعدة وأرفع منزلة منها لما لها من رعايةٍ للقلب والروح والعقل علماً أنَّها تستطيع أن تمضي في سبيل الحصول على لذّاتها بشرط عدم الإسراف إنجازاً لمهمة الشكر الخالص المقدرة لها وبنية الترف والإطلاع على أنواع النعم الإلهية بتذوقها والشعور بها بشرط مشروعيتها وعدم كونها وسيلة للتذلل والاستجداء أي أنَّنا نستطيع أن نستعمل ذلك اللسان الحامل للقوة الذائقة في الشكر عند قيامه بالتفضيل بين الأطعمة اللذيذة، ومصداقاً لكلامنا سنذكر لكم هذه الحادثة وهي كرامة من كرامات أحد العلماء الأخيار... «لقد كان لعجوز ابنٌ وحيد يتربى على يد هذا العالِم، دخلت العجوز ذات يوم على ٱبنها فوجدته يأكل كسرة خبزٍ أسمرٍ فذهبت هذه العجوز إلى معلِّمه العالم لتشتكيه إليه وإذا بها ترى العالم هذا يأكل دجاجاً مشوياً فقالت له: أيُّها الشيخ إنَّ ٱبني يكاد يموت جوعاً وها أنت ذا تأكل الدجاج!!

فخاطب الشيخ الدجاج قائلاً: قم بإذن الله، فوثب هذا الدجاج المطبوخ إلى خارج الوعاء، فقال الشيخ لتلك العجوز: متى ما بلغ ٱبنكِ هذه الدرجة فليأكل الدجاج هو الآخركذلك».

ومغزى ذلك كان قصد الشيخ العالم هو: «متى ما حَكَمَت روح ٱبنك جسده وهَيمَنَ قلبه على نفسه وساد عقله مَعِدَتَه وٱلتمس اللذة لأجل الشكر عندئذ يمكنه أن يتناولَ ما لذَّ وطاب من الأطعمة».

الحلقة الثالثة

الاقتصاد سبب العزَّة والكمال

الاقتصاد سبب العزَّة والكمال

المُقتصِد لا يعاني فاقةً من غائلة العائلة كما هو مفهوم الحديث الشريف: «**لا يعول من ٱقتصد**»، أجل فهناك من الدلائل القاطعة التي لا يحصرها العدّ بأنَّ الاقتصاد سبب جازم لإنزال البركة وأساس متين للعيش الأفضل، فإنَّ من لا يقتصد مدعوٌّ للسقوط في مهاوي الذلة ومُعرَّض للانزلاق إلى الاستجداء والهوان معاً، فالمال الذي يستعمل في الإسراف في زماننا هذا هو مالٌ صعب المنال جداً حيث تدفع أحياناً الكرامة والشرف ثمناً ورشوةً له بل قد تُسلَب المقدسات الدينية ثم يُعطى نقوداً منحوسة مشؤومة أي يقبض بضعة دنانير من نقودٍ ماديةٍ على حساب مئات الدنانيرمن النقود المعنوية، بينما لو ٱقتصر الإنسان على الحاجات الضرورية وٱختصرها وحصرَ همّه فيها فسيجد رزقاً يكفل عيشه من حيث لا يحتسب وذلك بمضمون قوله تعالى في الآية الكريمة: ﴿**إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ**﴾[1]، وكذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿**وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا**﴾[2]، فهذه الآية تتعهد بذلك تعهداً وثيقاً على أنَّ الرزق قسمان:-

(١) الذاريات: ٥٨.

(٢) هود: ٦.

القسم الاول:

وهو الرزق الذي تتوقف عليه حياة المرء وهو تحت التعهد الرباني بحكم هذه الآية فمهما كانت الأحوال يستطيع المرء الحصول على ذلك الرزق الضروري إن لم يتدخل سوء ٱختياره دون أن يضطر إلى فداء دينه ولا التضحية بشرفه وعزَّته.

القسم الثاني:

الرزق المجازي الذي لا يستطيع من أساء ٱستعماله أن يتخلى عن الحاجات غير الضرورية التي غدت ضرورية عند نتيجة الابتلاء ببلاء التقليد والولع به، والحصول على هذا الرزق باهض جداً ولا سيما في هذا الزمان حيث لا يدخل ضمن التعهد الرباني إذ يتقاضى ذلك المال بمقابل تضحيته بعزَّته سلفاً راضياً بالذل بل قد يصل به الحدّ إلى السقوط في هاوية الاستجداء المعنوي والتنازل إلى تقبيل أقدام ناس منحطّين وضيعين، لا بل قد يحصل على ذلك المال المنحوس الممحوق بالتضحية بمقدساته الدينية التي هي نور حياته الخالدة، ثم إنَّ ذوي الوجدان الطاهر والضمائر الحية ينتابهم ألمٌ من حيث العاطفة الإنسانية ناجمٌ مما يرونه من آلام يقاسيها المحتاجون البائسون في هذا الزمان الذي خيَّم عليه الفقر والحاجة فتشوب لذَّتهم التي حصلوا عليها بأموال

غير مشروعة مرارة مؤلمة وإن كانوا ذوي ضمائر حية، لذلك ينبغي في هذا الزمان العجيب الاكتفاء بحد الضرورة في الأموال المشبوهة لأنَّه حسب قاعدة «**الضرورة تُقدَّر بقدَرِها**» يمكن أن يؤخذ بٱضطرارٍ من المال الحرام حدّ الضرورة وليس أكثر من ذلك، وليس للمضطر أن يأكل من المدينة حدّ الشبع بل له أن يأكل بمقدار ما يحول بينه وبين الموت وكذا لا يؤكل الطعام بشراهةٍ أمام مئةٍ من الجائعين، وهنا نورد حادثةً واقعيةً للدلالة على كون الإقتصاد سبب العزة والكمال:

روي ان حاتم الطائي المشهور بكرمه وسخائه أقام وليمةً عظيمةً ذات يوم وأغدق هدايا ثمينةً على ضيوفه ومن ثم خرج للتجوال في الصحراء فرأى شيخاً فقيراً يحمل على ظهره حملاً ثقيلاً من الحطب والكلأ والشوك، والدم يسيل من بعض جسمه فخاطبه قائلاً: « أيُّها الشيخ، إنَّ حاتماً الطائي يُقيم اليوم ضيافة كريمة ويوزِّع هدايا ثمينة فبادر إليه لعلَّك تنال منه أموالاً أضعاف أضعاف ما تناله من هذا الحِمل!! فقال له الشيخ: سأحمل حملي هذا بعزّة نفسي وعَرَقِ جبيني ولا أرضى أن أقع تحت طائل منَّة حاتم الطائي»، ولما سُئِل حاتم الطائي ذات يوم مَنْ مِنَ الناس وجدتهم أعزّ منك وأكرم؟ قال:« ذلك الشيخ المقتصد الذي لقيته في المغارة ذات يوم، لقد لقيته بحقٍّ أعزّ مني وأكرم»

فمن كمال كرم الله سبحانه وتعالى أنَّه يذيق لذة نِعَمِه لأفقر الناس كما يذيقها أغناهم، فالفقير يستشعر اللذة ويتذوقها كالسلطان.

إنَّ اللذة التي ينالها فقير من كسرة خبزٍ أسود يابسٍ بسبب الجوع الشديد والاقتصاد تفوق ما يناله السلطان أو الثري من أكلهِ للحلوى الفاخرة بالملل وعدم الشهية النابعين من الإسراف، ومن العجب حقاً أن يجرؤ بعض المسرفين والمبذِّرين على اتّهام المقتصدين بالخِسَّة، بل الاقتصاد هو العزة والكرم بعينه بينما الخِسَّة والذلة هما حقيقة ما يقوم به المسرفون والمبذرون من سخاءٍ ظاهري، ونذكر هذه القصة القصيرة التي تبين ذلك... أصرَّ شخصٌ على صديقه المعروف بالاقتصاد على أن يقبل هديته التي تزن ثلاثة كيلوات من العسل وحاول صديقه المقتصد أن يمتنع عن أخذها إلّا أنَّه اضطر مُرغَماً على أن يشترك ثلاثة من أصدقائه معه بها ويأكلوا منها بالاقتصاد طوال أربعين يوماً ولكنهم قد أنفدوا هذا العسل خلال ثلاث ليالٍ فقط، فقال صاحبهم مبتسماً: «لقد كانت نيَّتي أن أجعلكم تتذوقون طعم العسل ثلاثين يوماً أو أكثر ولكنكم أنفدتموه في ثلاثة أيام فقط»، ولم تكن هذه القصة في معنى الإقتصاد وحسب بل الاستمتاع باللذة لوقتٍ أطول ايضاً.

الحلقة الرابعة

نتائج الإسراف

نتائج الإسراف

إنَّ هناك فرقاً شاسعاً وهائلاً بين الاقتصاد والخِسَّة إذ كما أنَّ التواضع هو من الأخلاق المحمودة يخالف معنى التذلل الذي هو من الأخلاق المذمومة، مع أنَّه يشابهه صورةً، كما أنَّ الوقار هو من الخصال الحميدة وهو يخالف معنى التكبر الذي هو من الأخلاق السيئة مع أنَّه يشابهه صورة، فكذا هو الحال في الاقتصاد الذي هو من الأخلاق النبوية السامية بل هو من المحاور التي يدور عليها نظام الكلمة الإلهية المهيمن على الكون ولا علاقة له أبداً بالخِسَّة التي هي مزيج من السَّفالة والبخل والجشع والحرص، بل ليست هناك رابط بينهما مطلقاً إلّا ذلك التشابه الظاهري، وهناك حدثٌ مؤيِّد لهذه الحقيقة هو: روي أن أحد الصحابة المقربين من الرسول الأكرمﷺ دخل يوماً في مناقشةٍ حادّةٍ عند تعامله في السوق على شيءٍ لا يساوي درهماً واحداً حفاظاً على الاقتصاد وصوناً للأمانة والاستقامة اللتين تدور عليهما التجارة، وفي هذا الوقت رآه صحابي آخر فظنَّ أنَّ ما فعله ذلك الصحابي في السوق فيه شيء من الخِسَّة فتبعه إلى بيته ليفهم شيئاً من أحواله فوجده وقف بعض الوقت مع فقير على الباب وتبادلا حديثاً في لطفٍ ومودةٍ ومن ثم خرج من الباب الثاني وتجاذب أطراف الحديث مع فقيرٍ آخر، فأثار هذا

الأمر لهفة الصحابي فأسرع إلى الفقيرين للاستفسار منهما قائلاً: هلا تفهماني ماذا فعل ذلك الصحابي حينما وقف معكم؟ فقالا: لقد أعطى كلاً منا قطعة ذهب فأدهشه الأمر وتعجب، فذلك الصحابي يدخل في نقاشٍ طويلٍ في السوق على درهمٍ واحدٍ ويعطي قطعاً ذهبية للفقراء؟! فسأله عن ذلك فأجابه: «إنَّ ما فعلته في السوق هو نتيجة الاقتصاد والصيانة للأمانة وحفظاً للصدق اللذَيْن هما أساس المبايعة وروحها وهو ليس بخِسَّةٍ ولا ببخل وما بَدَرَ مني تجاه الفقراء هو رأفة القلب وسموّ الروح واكتمالها فلا ذلك ببخل ولا هذا باسراف»، نستنتج من هذه الرواية القصيرة الحديث الذي يقول: «**لا إسراف في الخير ولا خير في الإسراف**»، وهناك جانب آخر من الحديث ألا وهو «**الإسراف يُنتج الحرص**» و«**القناعة كنزٌ لا يفنى**»، فالحرص يوَّلِد ثلاث نتائج:

١- عدم القناعة:

وعدم القناعة هذا يثني الشوق عن العمل بما يبث في نفس الحريص من الشكوى بدلاً من الشكر قاذفاً به إلى أحضان الكسل فيترك المال الزهيد النابع من الكسب الحلال ويبادر بالبحث عما لا مشقة ولا تكليف فيه من مال غير مشروع فيهدر في هذا السبيل عزَّته بل كرامته.

٢- الخيبة والخسران:

إذ يتعرض الحريص للاستثقال ويُحرم من التيسير والمعاونة حتى يكون مصداق القول المشهور: «**الحريص خائبٌ خاسرٌ**».

إنَّ تأثير الحرص والقناعة ليجري في عالم الأحياء وفق دستور شامل، فمثلاً إنَّ وصول أرزاق النباتات المضطرة إلى الرزق هو لقناعتها الفطرية وسعي الحيوانات بنفسها للحصول على أرزاقها في عنادٍ ونقصٍ يبديان مدى الضرر الجسيم الكامن في الحرص ومدى النفع العظيم الكامن في القناعة، كما أنَّ سيلان الحليب ذلك الغذاء اللطيف إلى أفواه الصغار عامةً من حيث لا يحتسبون بما يبدونه من قناعة ينطق بها لسان حالهم، وإنَّ أوضاع الأسماك السمينة البليدة التي تنمُّ عن القناعة لوصول أرزاقها إليها كاملة وعجز الحيوانات الذكية كالثعالب والقردة عن تحصيل غذائها كاملاً مع حرصها سعياً وراءها وبقائها هزيلة نحيلة ليبين لنا هذا ما يسببه الحرص من مشقة وعناء وما تسببه القناعة من راحة وهناء، كما أنَّ تردِّي كثير من العلماء العباقرة والأدباء بما يمنحهم ذكاؤهم من الحرص في فقرٍ مُدقعٍ وعيش كفافٍ وغنى أكثر الأغبياء والعاجزين وإثرائهم لما لهم من حالة فطرية قنوعة ليثبت إثباتاً قاطعاً أنَّ الرزق الحلال يأتي حسب العجز والافتقار وليس بالاقتدار والاختيار،

ذلك أنَّ أرزاق الأطفال تتضاءل وتبتعد ويصعب الوصول إليها كلما ٱزدادوا ٱختياراً وإرادةً وٱقتداراً، فالقناعة كنزٌ للعيش الهنيء الرغيد ومبعث الراحة في الحياة بينما الحرص هو مبعث الخسران كما يتبين ذلك من الحديث الشريف: «**القناعة كنزٌ لا يفنى**».

٣- الحرص يُفسد العمل الأخروي:

لأنَّه لو وُجِدَ حرصٌ في مؤمنٍ تقي لرَغِبَ في توَّجه الناس وإقبالهم عليه، ومن يرقب توجه الناس وينتظره لا يمكنه الوصول أبداً إلى الإخلاص التام ولا يمكنه الحصول عليه، فالإسراف يُنتج عدم القناعة أي الطمع فتطفيء وهج الشوق والتطلع إلى العمل ويرمي بالإنسان إلى التقاعس والكسل ويفتح أمامه أبواب الشكوى والحسرة في حياته كما أنَّه يفسد إخلاصه ويفتح دونه باباً للرياء والتصنُّع فيكسر عزَّته ويريه طريق الاستجداء، أما الاقتصاد فإنَّه يُثمر القناعة والقناعة تُنتج العزة ٱستناداً إلى الحديث الشريف: «**عزَّ من قنعَ وذلَّ من طمعَ**»، أما المسرف فإنَّه لا يسعى في يومه الثاني لعدم قناعته.

الحلقة الخامسة

القناعة

القناعـــة

إنَّ القناعة المستفيضة من الاقتصاد تفتح باب الشكر وتوصد باب الشكوى فيظل الإنسان في شكرٍ وحمدٍ مدى حياته، فإذا قابلتَ مسرفاً فستسمع منه حتماً الشكاوى العريضة ومهما كان غنياً فلسانه يشكو لا محالة، بينما إذا قابلت فقيراً فلا تسمع منه إلّا الحمد والشكر لله، وقد نشاهد الأضرار الجسيمة والخسائر الفادحة التي تسفر عن الإسراف وعدم الاقتصاد حيث روى أحد الأشخاص قائلاً: جئت إلى مدينةٍ مباركةٍ قبل تسع سنوات وكان موسم الشتاء فلم أتمكن من رؤية منابع الثروة وجوانب الإنتاج في تلك المدينة، فقال مُفتيها: إنَّ أهالينا هنا فقراء مساكين وأعاد قوله هذا مراراً فأخذ هذا الشخص يتألم لأهالي تلك المدينة فيما يقرب من ست سنوات، عاد إليها هذا الشخص في أجواء الصيف فنظر في بساتينها متعجباً وقال: سبحان الله!! إنَّ محاصيل هذه البساتين وغلّاتها تفوق حاجة المدينة بأسرها كثيراً وكان حريّاً بأهلها أن يكونوا أثرياء جداً وبقي في حيرةٍ من هذا الأمر ولكن أدرك حينها حقيقة لم تخدعه عنها المظاهر ألا وهي أنَّ البركة قد رُفِعت من هذه المدينة بسبب الإسراف وعدم الاقتصاد حتى حدا الأمر أن يقول ذلك الرجل: إنَّ أهلنا فقراء ومساكين رغم هذا القدر الواسع من منابع

الثروة وكنوز الموارد، إنَّه ثابت بالتجربة وبالرجوع إلى وقائع لا تُعَدّ بأنَّ دفع الزكاة والأخذ بالاقتصاد سببان للبركة والاستزادة، بينما الإسراف ومنع الزكاة يرفعان البركة، ولقد فسَّر بعض الفلاسفة قوله عزَّ وجل: ﴿**وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا**﴾[1] من زاوية نظر الطب بالأبيات التالية:

جمعتُ الطبَّ في البيتين جمعـاً
وحسنُ القولِ في قِصَرِ الكلام
فقلِّل إن أكلتَ وبعد أكـــل
تجـــنَّب والشفاء في الٱنهضام
وليس على النفوس أشدُّ حالاً
من إدخال الطعام على الطعام

قال تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ**﴾[2]، وقال عزَّ ٱسمه أيضاً: ﴿**وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ**﴾[3]، ندرك مماسبق مدى ما تتركه العداوة والبغضاء من أضرار جسيمة فٱعلم أنَّ الحرص أيضاً داء بل هو أضرّ على الحياة الإسلامية وأدهى، عليها فٱلحرص بذاته سبب الخيبة والخذلان وداءٌ وبيلٌ ومهانةٌ

(١) الأعراف: ٣١.
(٢) الذاريات: ٥٨.
(٣) العنكبوت: ٦٠.

وذلةٌ وهو الذي يجلب الحرمان والدناءة، والشاهد القاطع على هذا الحكم على الحرص هو ما أصاب اليهود من الذلة والمسكنة والهوان لشدة تهالكهم على حطام الدُّنيا أكثر من أي أُمَّةٍ أخرى، والحرص يظهر تأثيره السيئ بدءاً من أوسع دائرة في عالم الأحياء وٱنتهاءً إلى أصغر فردٍ فيه، بينما السعي وراء الرزق المكلل بالتوكل مدار الراحة والاطمئنان ويبرر أثره النافع في كل مكان، ومثال ذلك أنَّ النباتات والأشجار المثمرة المفتقرة إلى الرزق وهي تُعَدّ نوعاً من الأحياء تهرع إليها أرزاقها سريعاً وهي منتصبة في أماكنها متَّسمة بالتوكل والقناعة دون أن يبدو منها أي أثر للحرص بل تتفوق على الحيوانات في تكاثرها وتربية ما تولِّد من ثمرات أما الحيوانات فلا تحصل على أرزاقها إلّا بعد جهدٍ ومشقةٍ وبكميةٍ زهيدةٍ ناقصةٍ، وذلك لأنَّها تلهث وراءها بحرص وتسعى في البحث عنها حثيثاً حتى أنَّنا نرى في عالم الحيوان نفسه أنَّ الأرزاق تُسبغ على الصغار الذين يعبِّرون عن توكلهم على الله بلسان حال ضعفهم وعجزهم فيرسل إليهم رزقهم المشروع اللطيف الكامل من خزينة الرحمة الإلهية، بينما لا تحصل الحيوانات المفترسة التي تنقضّ على فرائسها بحرصٍ شديدٍ إلّا بعد تحرٍّ عظيم، فهذه الحالات تبيّن بوضوح أنَّ الحرص سبب الحرمان أما التوكل والقناعة فهما وسيلتا

الرحمة والإحسان ونرى الحال نفسه في عالم الإنسان إذ أن اليهود الذين هم أحرص الناس على الحياة ويستحبون الحياة الدُّنيا على الآخرة بل يعشقونها حتى سبقوا الأمم في هذا المجال قد ضربت عليهم الذلة والمهانة، فالحرص هو معدن الذلة والخسارة، وهناك وقائع كثيرة وحوادث لا تدخل في الحصر تبيّن أنَّ الحريص مُعرَّض دائماً للوقوع في حومة الخسران حتى جرى «**الحريص خائبٌ خاسرٌ**» مجرى الأمثال الشائعة واتخذه الجميع حقيقة عامة في نظرهم ويمكن أن نُشبِّه القانعين من الناس والحريصين منهم بشخصين يدخلان مضيفاً كبيراً أعدَّه شخصٌ عظيمٌ ذو شأنٍ يتمنى أحدهما من أعماقه قائلاً: «لو أنَّ صاحب الديوان يأويني مجرد إيواء وأنجو من شدة البرد الذي في الخارج لكفاني» وأما الآخر فيتصرف وكأن له حقاً على الآخرين لذا يقول في أعماقه بغرور: «على صاحب الديوان أن يوفر لي أرفع مقعدٍ وأحسنه» إلّا أنَّ صاحب الديوان يُرجِعَه ويردَّهُ إلى أدنى موقع في المجلس بينما رحَّب بالشخص الأول الذي دخل الديوان وهو يشعُّ تواضعاً يلتمس الجلوس في أدنى مقعدٍ متوفرٍ إذ سرَّته هذه القناعة البادية منه والتي بعثت في نفسه الانشراح والاستحسان وأخذ يرقِّيه إلى أعلى مقام وأرقاه، وهكذا الدُّنيا ديوان ضيافة الرحمن فوجه الأرض مائدة الرحمن المبسوطة، ودرجات الأرزاق ومراتب النعمة بمثابة المقاعد المتباينة.

الحلقة السادسة

الحرص ووخامة عاقبته

الحرص ووخامة عاقبته

إنَّ سوء تاثير الحرص ووخامة عاقبته يمكن أن يشعر به كل واحد حتى في أصغر الأمور وأدقّها جزئيةً، فمثلاً يمكن أن يشعر كل شخص بٱستياءٍ وٱستثقالٍ في قلبه تجاه متسوِّلٍ يلحّ عليه بحرصٍ شديدٍ حتى أنَّه يردَّهُ بينما يشعر باشفاق تجاه متسول آخر وقف صامتاً قنوعاً فيتصدق عليه، ومثلاً إذا أردت أن تغفو في ليلة أصبت فيها بالأرق فإنَّك تهجع رويداً رويداً إن أهملته ولم تبالِ به، ولكن إن حرصت على النوم وقلقت عليه وأنت تتمتم: تُرى متى أنام؟ أين النوم مني؟ لتبَدَدَ النوم ولفقدتَه كلياً، ومثلاً ينتظر أحدهم بفارغ الصبر وأنت حريص على لقائه لأمرٍ مهمٍ فتبدأ بالقلق قائلاً: لِمَ لم يأتِ؟ ما بالُهُ تأخر؟ وفي النهاية يزيح الحرص الصبر من عندك ويضطرك إلى مغادرة مكان الانتظار يائساً وإذا بالشخص المُنتظَر يحضر بعد هنيهة ولكن النتيجة المرجوّة قد ضاعت وتلاشت، فٱلسرُّ الكامن في أمثال هذه الحوادث وحكمتها هو: مثلما يترتب وجود الخبز على أعمال المزرعة والفرن فإنَّ ترتّب الأشياء كذلك يقترن بحكمة التأني والتدرج ولكن الحريص بسبب حرصه لا يتأنّى في حركاته ولا يراعي الدرجات والمراتب المعنوية الموجودة في ترتّب الأشياء وبذلك سيقفز ويسقط أو يدع إحدى المراتب ناقصاً فلا

يرتقي لغايته المقصودة، فيا أيُّها الناس الهائمون في الحرص على الدُّنيا، كيف ترضون لأنفسكم الذلة والمهانة في سبيل الحرص مع أنَّ فيه هذه الأضرار والبلايا وتُقْبِلون على كل مالٍ دون أن تعبؤوا أهو حلالٌ أم حرامٌ؟ وتضحّون في سبيل ذلك أموراً جليلة وأشياء قَيِّمة تستوجبها الحياة الأخروية حتى أنَّكم تَدَعون في سبيل الحرص ركناً مهماً من أركان الإسلام ألا وهو «الزكاة»، على أنَّها باب عظيم تفيض منه البركة والغنى على كل فردٍ وتدفع عنه البلايا والمصائب، فالذين لا يؤدون الزكاة لأموالهم لا محالة يفقدون أموالاً بقدرها ويبددونها إمّا في أمور تافهة لا طائل وراءها أو تُلِمّ بهم مصائب تنزعها منهم ٱنتزاعاً، ولو تساءلنا ما السر الكامن في هذا الفقر والخصاصة اللذين أصابا الأمة الإسلامية؟ وما السر في التلف الذي أصاب أموالهم وأهدرها وفي العناء والمشاقّ التي رزحت تحت أجسادهم؟ لوجدنا أنَّ الله تعالى قد فرض علينا فيما رزقنا من ماله العُشر في قسم من الأموال وواحداً من أربعين في قسم آخر كي يجعلنا ننال ثواب أدعيةٍ خالصة من الضغينة والحسد إلّا أنَّنا قبضنا أيدينا حرصاً على المال فلم نؤدِّ الزكاة فٱسترجعَ سبحانه وتعالى تلك الزكاة المتراكمة علينا بنسبة ثلاثين من أربعين وبنسبة ثمانية من عشرة، وكذلك طلب سبحانه منا أن نصوم لأجله ونجوع في سبيله

جوعاً يتضمن من الفوائد والحكم ما يبلغ السبعين فائدة طلب منا أن نقوم به في شهر واحد من كل سنة، فعزَّت علينا أنفسنا وأخذتنا الرأفة بها عن غير حقٍّ وأَبَينا أن نطيق جوعاً مؤقتاً فما كان منه سبحانه إلّا مجازاتنا بنوع من صوم وجوع له من المصائب الكثير، وكذا طلب منا سبحانه نوعاً من تنفيذ الأوامر والتعليمات الربانية الطيبة المباركة السامية النورانية نؤديها في ساعة واحدة من بين أربع وعشرين ساعة فتقاعسنا عن أداء تلك الصلوات والأدعية والأذكار، فأضعنا تلك الساعة الواحدة مع بقية الساعات فٱبتلى المسلمون بالحروب وأُرغموا على أداء نوع من العبادة والصلاة بتلقين التعليمات والتدريب لخمس سنوات.

إنَّ هناك كلمتين ٱثنتين منشأ جميع ما آلت إليه البشرية في حياتها الاجتماعية من تَـرَدٍّ في الأخلاق وٱنحطاطٍ في القيم وهما منبع جميع الٱضطرابات والقلاقل:-

الكلمة الأولى: إذا بتَّ شبعان، فليهلك الآخرون ولا أُبالي.

والكلمة الثانية: إسعَ أنت لأقبضَ أنا الآخرة.

وإنَّ الـذي يُديم هاتين الكلمتين ويغذيهما هـو: جريان الرِّبا

وعدم أداء الزكاة، وإنَّ الحل الوحيد والدواء الناجح لهذين المرضين الاجتماعيين هو تطبيق الزكاة في المجتمع وفرضها فرضاً عاماً وتحريم الرِّبا كلياً لأنَّ أهمية الزكاة لا تنحصر في أشخاصٍ وجماعاتٍ معينةٍ فقط، بل أنَّها ركنٌ مهمٌ في بناء سعادة الحياة البشرية ورفاهها جميعاً بل هي عمود أصيل تتوطد به إدامة الحياة الحقيقية الإنسانية؛ ذلك لأنَّ في البشرية طبقتين هما الخواص والعوام، والزكاة تؤمِّن الرحمة والإحسان من الخواص تجاه العوام وتضمن الإحترام والطاعة من العوام تجاه الخواص وإلّا ستنهال مطارق الظلم والتسلط على هامات العوام من أولئك الخواص وينبعث الحقد والعصيان اللذان يضطرمان في أفئدة العوام تجاه الأغنياء الموسرين وتظل هاتان الطبقتان من الناس في صراعٍ معنوي مستديم، فإن لم تقصدوا بالحسنات التي تدفعونها نيّة الزكاة ولم تكن بٱسمها فإنَّ لها ثلاثة أضرار، بل قد تتلاشى سدىً دون نفعٍ، وفي الحقيقة لستُم مستخلفين مأمورين تقومون بتوزيع مال الله على عباده ولكن إذا أدَّيتم الإحسان بٱسم الزكاة وفي سبيل الله فإنَّكم تنالون ثواباً عظيماً وأجراً عظيماً، وأنتم بهذا العمل تؤدّون شكراً للنعم التي أسبغها الله عليكم فتنالون الدعاء المقبول من ذلك المحتاج المَعوز.

أين ما تمنح من أموالٍ بقدر الزكاة بل أكثر منها؟ وأين القيام

بالحسنات بشتى صورها ودفع الصدقات مع ٱكتساب أضرارٍ جسيمةٍ أمثال الرياء والصيت مع المنّة والإذلال؟ أين ذلك من أداء الزكاة؟ والقيام بتلك الحسنات بنيّتها في سبيل الله وٱغتنام فضل القيام بفريضة من فرائض الله وكسب الثواب منه سبحانه والظفر بالإخلاص والدعاء المستجاب، ألا شتّانَ بين العطاءين!!!

من ذلك ندرك أنَّ الحريص خائبٌ خاسر في الدُّنيا والآخرة، ومن يمتنع عن أداء حق الله إلى عباده خاسرٌ أيضاً.

الحلقة السابعة

الأرزاق والآجال

الأرزاق والآجال

إنَّ الآجال والأرزاق اللذين يبدوان بظاهر الأمر كأنَّهما مُبهمان وغير معيَّنان إلّا إنَّهما في الواقع مقدَّران تحت ستار إبهامٍ في دفتر القضاء والقدر الأزلي وفي صحيفة المقدَّرات الحياتية، فالأجل المحتوم لكل ذي حياةٍ مقدَّر ومعيَّن لا يتقدم ساعة ولا يتأخر، ورزق كل ذي روحٍ قد عُيِّنَ وخُصِّص ومكتوبٌ كل ذلك في لوح القضاء والقدر، وهناك مالا يُحَدُّ من الأدلَّة على هذا الحكم منها:

إنَّ موت شجرةٍ ضخمةٍ وتوريثها بذرتها التي هي بمثابة نوع من روحها للقيام بمهامِّها التي كانت تؤدِّيها لا يتمّ إلّا بقانونٍ حكيمٍ لعليمٍ حفيظٍ، إنَّ ما يتدفق من الأثداء من لبنٍ خالصٍ رزقاً للصغير وخروجه من بين فرثٍ ودمٍ دون إختلاط أو آمتزاج، صافياً طاهراً وسيلانه إلى فمه ليردَّ ردّاً حازماً آحتمال وقوعه بالمصادفة، ويبيّن تحققه في غاية القطعية أنَّه من جراء دستورٍ ذي شفقةٍ موضوعةٍ من لدنِ رزّاقٍ عليمٍ رحيمٍ، وقِيسَ سائر ذوي الحياة وذوي الأرواح على هذين النموذجين الجزئيين، ففي حقيقة الأمر إنَّ الأجل مُعَيَّن مُقَدَّر والرزق كذلك وقد أُدرج في سجل المقدَّرات وجُعِلَت له ساعة معينة لكل واحدٍ ولكنهما يبدوان في الظاهر متوازيَين خلف حجاب الغيب ومتعلِّقَين في خيوط

الإبهام غير المرئية ويظهران كأنَّهما غير معيَّنَين فعلاً وكأنَّهما مشدودان إلى المصادفة، كلُّ ذلك لأجل حكمةٍ دقيقةٍ وفي غاية الأهمية، إذ لو كان الأجل معيَّناً كغروب الشمس لكان الإنسان يقضي شطر عمره في غفلةٍ مطبقةٍ ويضيِّعَهُ عازفاً عن السعي للآخرة ومن ثم يتورط في الشطر الآخر بخِضَّم المخاوف المذهلة ويكون كمن يخطو خطوةً كلَّ يومٍ نحو أعواد المشانق لكانت المصيبة المندرجة في الأجل تتضاعف بالمئات، ولأجل هذا السرِّ الدقيق أُبقيت المصائب التي تعاود الإنسان عادةً تحت ستار الغيب بل حتى أنَّ أجل الدُّنيا الذي هو القيامة قد أخفاهﷻ رحمةً منه ورأفةً خلف حجاب الغيب للسبب نفسه، أمّا الرزق فلكونه أعظم خزينةٍ تفيض بالنعم بعد نعمة الحياة وأغنى منبعٍ يعبُّ بالشكر والحمد وأجمل كنزٍ للعبودية والدعاء وضروب الرجاء فقد عُرِضَ في صورته الظاهرة كأنَّه مبهَمٌ ومشدودٌ إلى المصادفة وذلك لئلّا يوصد باب طلب الرزق بالدعاء من الرزق الكريم في كل حينٍ ولئلّا ينغلق باب الإلتجاء والتوسل المشفَّعة بالحمد والشكر لله تعالى، إذ لو كان الرزق معيَّناً كشروق الشمس وغروبها لكانت ماهيَّته متغيرة كلياً ولكانت أبواب الرجاء ومنافذ التضرع ومعارج الدعاء الملفَّعة كلّها بالشكر الجميل والرضى الحسن قد إنسدت عن آخرها بل لكانت

أبواب العبودية الخاشعة الضارعة قد انغلقت نهائياً، أمّا حال البشر في المدينة والبداوة والفرق بينهما فيما يتعلق بالإسراف والحرص وغيرها فلقد كان الفرد في البداوة يعوزه ثلاثة أو أربعة أشياء وكان ٱثنان من كل عشرة أشخاص يعجزان عن تدارك تلك الأشياء الثلاثة أو الأربعة، بينما في الوقت الحاضر وتحت سطوة المدينة المستبدة المتميزة بإثارة سوء الإستعمال والدفع إلى الإسراف وإدخال الحاجات والمطالب غير الضرورية، فلقد أصبح الإنسان العصري من حيث حبّ التقليد والإدمان مفتقراً إلى عشرين حاجة بدلاً من أربعٍ منها ضرورية، وقد لا يستطيع إلّا شخصين من كل عشرين شخص أن يلبّوا تلك الحاجات العشرين من مصدرٍ حلالٍ وبشكلٍ مباحٍ ويبقى الآخرون «الثماني عشر» محتاجون ومفتقرون، فهذه المدينة الحاضرة إذن تجعل الإنسان فقيراً جداً ومَعُوزاً دائماً ولقد ساقت البشرية من جهة تلك الحاجة إلى مزيد من الكسب الحرام وذلك بهجرها القانون الأساس الذي سَنَّهُ القرآن الكريم والقاضي بوجوب الزكاة وتحريم الرِّبا والذي يؤمّن بواسطتها توقير العامة للخاصة، ويوفِّر بهما شفقة الخاصة على العامة، فبهجرها ذلك القانون الأساس أرغمت بعض الدول على ظلم الفقراء وهضم حقوقهم وأجبرت الفقراء على العصيان والتمرد في معاملتهم

معهم فدمَّرت سعادة البشرية وراحتها وأمنها وٱطمئنانها وجعلتها أثراً بعد عين، فما أنجزته المدينة من خوارق في ساحة العلم نِعَمٌ ربّانية تستدعي شكراً خالصاً من الإنسان على ما أنعم عليه وتقتضي منه كذلك ٱستخداماً ملائماً لها لفائدة البشرية ومنفعتهم، بَيْدَ أنَّنا نرى الآن خلاف ذلك إذ تقود تلك الخوارق قسماً من الناس الذين لهم أهمية بالغة في الحياة وتوردهم موارد الكسل والسفاهة إذ أنَّها تزكّي نار الأهواءالنفسانية فتُقعِد الإنسان عن الكدِّ والسعي وتثنيه عن الشوق إلى العمل وتسوقُهُ بعدم القناعة وعدم الإقتصاد إلى السفاهة والإسراف والظلم وٱرتكاب المحرمات، ومثال ذلك جهاز التلفاز فهو نعمة إلهية عظيمة على البشرية فبينما تقتضي شكراً معنوياً منّا عليها وذلك بٱستخدامها لصالح البشرية كافة، نرى أربعة أخماس ٱستعمالاتها تُصرَف في إثارة الأهواء وإلى أمورٍ تافهةٍ لا تعني الإنسان في شيء، فتجتث جذور شوق الإنسان إلى السعي وتوقِعُهُ في الكسل والإخلاد إلى الراحة والإستمتاع بالمشاهدة حتى يَدَعُ الإنسان وظيفة حياته الحقيقية، وفي الوقت الذي يلزم توجيه قسم من الوسائط والوسائل الخارقة النافعة وصرفها في تيسير مصالح البشرية الحقيقية وتذليل مشاقِّها فهي لاتُصرَف إلّا إلى حدٍّ واحدٍ وٱثنين من عشرةٍ في تلبية تلك الحاجات الضرورية وتُساق الثمانية الباقية من

العشرة إلى اللهو والدِّعةِ والكسل وقضاء الوقت، وهناك الألوف من الأمثلة على هذين المثالين الجزئيين، وخلاصة الكلام أنَّ المدينة الحاضرة لا تلقي السمع كلياً إلى الأديان السماوية وهي تتمادى في تهييج نار الإسراف والحرص والطمع عندها بعد أن شجعته على وسائل التفاهة، وهكذا بدَّدت الشوق لديه إلى السعي والعمل فأضاع الإنسان عمره الثمين سدًى بآتباعه هوى المدينة، وهكذا نجد أنَّ الإنسان وهو محاط بكل مظاهر اللهو والإستخفاف يحيط نفسه هو أيضاً بهالةٍ من الحرص وعدم القناعة، وكلُّ هذه من مظاهر عدم الشكر لأنعُم المولى، لأنَّ أداء واجباتنا التي أمرنا بها الله وحدها تكفي لأيصال رسالة الشكر إلى خالق الأكوان.

الحلقة الثامنة

فوائد الحمد والشُكر للمولى

فوائد الحمد والشكر للمولى

إنَّ التفكير المادي ليس في الواقع سوى نظّارة سوداء يرى الإنسان بها الأشياء مخيفةً وسوداء، أما حقيقة الإيمان فهي نظّارة شفافة نورانية برّاقة يرى الإنسان بها جميع الأشياء والأمور مؤنسة وجميلة، والإنسان يتحسس ويرى كل ماحوله من أحوالٍ ومخلوقاتٍ من الجهات كافة حسب ٱستعماله لتلك النظّارتين، والإنسان كذلك بفطرته ٱجتماعي فله علاقة مع جميع المخلوقات أخذاً وعطاءً كلاماً وٱتصالاً ومجاورةً مع كل ما يحيط به سواء أكان بصورة مباشرة أو غير مباشرة.

لذا أصبحت لديه ست جهات يرتبط بها وهي: اليمين واليسار أي الماضي والمستقبل والـ «خلف والأمام» أي المبدأ والمصير والـ «تحت» والـ «فوق» أي الأرض والسماء، فمن جهة الماضي، المنظار المادي يرينا أنَّ ممالك الماضي الغابرة قد ٱنهدَّت أركانها وهُدَّت عروشها وإنَّ الآباء والأجداد قد فُنوا من الوجود فلم يبقَ في نظره من هذه الجهة إلّا ظلام موحش رهيب وكأنَّها مقبرة كبيرة واسعة ومدافن منتشرةٍ خَرِبة، ولا شكَّ أنَّ الإنسان بنظرته هذه سيكون في يأسٍ ورعبٍ دائمَين، ولكن عندما يأتي نور الإيمان الأنيس يبدِّد ذلك الظلام الموحش قائلاً: لقد دمَّرتُ الممالك حقاً وها هي هُدِّمَت وزالت من الوجود ولكن دون

خسائر في الأرواح فإنَّ ساكني تلك الممالك وموظَّفيها في حقيقة الأمر قد نُقِلوا إلى عالمٍ نوراني خالدٍ رائع الجمال وماهذه القبور المبثوثة في أرجاء العالم التي نشاهدها هنا وهناك إلّا أنفاق تحت الأرض توصلنا إلى ذلك العالم الرحب، فينبثق من هذا الإيمان سرور وأفراح وٱطمئنان وٱنشراح وفي كلٍّ منها نِعَمٌ عظيمةٌ تستوجب على الإنسان أن يردِّد آلاف المرات «**الحمدُ لله... الحمدُ لله**»، وأمّا من جهة اليسار ونعني بها المستقبل فالمستقبل في النظر المادي ينتهي بـ «الموت» وحفرة القبر المظلم المخيف فهو فاغرٌ فاه ليلقمنا في جوفه هذه هي نظرة المحروم من نعمة الإيمان فيا لها من نظرةٍ قبيحة!!

أما المستقبل المنوَّر بنور الإيمان عند المؤمن فهو رياضٌ مزيَّنة تتهيأ وضيافات رحمانية تمتد نحو أشهى لذائذ المأكولات الملونة وأطيب نفائس المشروبات المتنوعة أعدَّها الله سبحانه وتعالى للبشر بفضله وكرمه وهو الخلّاق الرحيم مما يدفعنا إلى أن نكرر منشدين آلاف المرات «**الحمد لله على نعمة الإيمان**»، وأما جهة الـ «فوق» فهي السماء فإن نظر إليها أحدٌ بمنظار الماديين الجفاة فسيرى أنَّها سماء مملوءة بملايين النجوم والكواكب تسبح في هذا الفضاء الواسع وتجري بسرعة هائلة وتتحرك بحركات مختلفة، ولكن دون هدف أو قصد ودون منظِّم ومدبِّر كما

يظنون مما يقذف في القلب الرعب والخوف فيستوحش من النظر إليها ولا يجد فيها أُنساً ولا حُبّاً، وعلى العكس من ذلك فإنّ النظرة الإيمانية تجعل هذه القناديل المضيئة والمصابيح المتدلّية المبتسمة لنا في سمائنا والسابحة بسرعة رائعة ومنتظمة تحت رعايةٍ وتدبير حكيمٍ عليمٍ فيدخل الأنس والمحبة في قلوبنا بدل الخوف والوحشة من أجل ذلك فلو سبّحنا بـ «**الحمد لله**» آلاف المرات لكانت قليلة أمام نعمة الإيمان الذي يُرينا السماء على هذه الصورة المؤنسة.

وأمّا جهة الـ «تحت» فهي الأرض، فالذي ينظر إلى الأرض بعين الماديين وتصوُّرهم يرى إنَّ الكرة الأرضية وليدة الصدفة فحسب، وإنَّ حبلها على غاربها وإنَّ أمرها ليس بيدها أو بيد أحد، تدور حول الشمس بلا هدفٍ وبلا غايةٍ فهي كسفينةٍ حائرةٍ في خِضَّمِ البحر تسير بلا رُبّان، وعندئذ يأخذه الدوار والدهشة والإضطراب فلا يفهم شيئاً وهنا يأتي نور الإيمان يُضيء كالسراج ويزيل بنوره تلك الحيرة والإضطراب جاعلاً من الأرض سفينة ربّانية مُسخَّرة مشحونة بأنواع اللذائذ والمطعومات وقد سخرها الله سبحانه للإنسان والأحياء الآخرين ليمتطي متنها ويسير بها في أطراف مملكته من أجل النزهة والسياحة والتجول.

إذن... ألا تدفع هذه النعمة المنبعثة من الإيمان المؤمن أن يردِّد دائماً: «الحمد لله»!.

وأمّا من جهة الأمام التي هي المصير فالإنسان المادي يرى جميع الأحياء من الإنسان والحيوان يتوجهون مسرعين قافلةً إثرَ قافلةٍ إلى هذا المصير حتى يغيبوا وراء ظلمات العدم إلى غير رجعةٍ وهو يعلم يقيناً أنَّه سيأتي دوره يوماً، وسيكون واحداً من هؤلاء في هذه المرحلة الخاطفة، ويظل يلازمه هذا التفكير حتى يوصله إلى القلق والهذيان.

أمّا المؤمن المتيَّقن فإنَّه يرى أنَّ هذه المرحلة لن تنتهي إلى العدم وأنَّ المجموعة البشرية هم كالبدو الرُحَّل ينتقلون من مرعىً إلى مرعىً آخر ومن دار الفناء إلى دار البقاء ومن مكان الخدمة إلى موضع أخذ الأُجرة ومن ميدان الزحمة والمشقَّة إلى مقام الرحمة والمكافأة، فينظر المؤمن بكل ٱطمئنان وأمل إلى مصيره وإن كان ما يراه من أتعابٍ ونَصَبٍ ومشقَّةٍ في سفرته هذه من موتٍ وقبرٍ وما شابه، سينقلب عنده إلى سعادةٍ ولذةٍ وأمانٍ وذلك لأنَّ الطريق التي تؤدي إلى العالم النوراني تمرُّ حتماً من القبر وإنَّ السعادة الكبرى هي نتيجة المصائب الكثيرة الأليمة، ولذلك ما نال سيدنا يوسف عليه السلام مرتبة عزيز مصر إلّا بعد السجن بٱفتراء ٱمرأة العزيز عليه بعد أن ألقاه إخوته في الجبِّ، وكذلك الطفل لا ينال سعادة الحياة

إلّا بعد ما يرى مضايقات الرحم والولادة على باب الدُّنيا، فالحمد لله دائماً على ما فتحه نور الإيمان من أبواب السعادة على مصاريعها.

إنَّ نور الإيمان يصور الدارين الدُّنيا والآخرة بأنَّهما أشبه ماتكونان بسُفرتين ممدودتين ومملوءتين نِعَماً يستفيد منهما المؤمن بيد الإيمان وبحواسه الظاهرة والباطنة وبلطائفه المعنوية والروحية، بينما تتضاءل وتصغر دائرة ٱستفادة الأحياء في نظر الضلالة فتنحصر في لذائذه المادية فقط والتي يُنغِّصها الزوال، فنور الإيمان يوسِّع ويوسِّع تلك الدائرة إلى ما تحيط السماوات والأرض بل الدُّنيا والآخرة حتى أنَّه يرى الشمس سراجاً في بيته والقمر نوراً في داره فتكونان نعمةً له ويحسبهما رفيقاً وأنيساً له في سفره، إذ كما ذكره القرآن الكريم المعجز من قوله تعالى: ﴿**وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ**﴾[1] فأشار ببلاغته الرائعة إلى هذه الإحسانات الخارقة الناشئة من الإيمان، وهكذا يتجلى نور الإيمان بنِعَمِ الباري، وهذه صورة من صور الحمد والشكر على النعم.

(١) إبراهيم: ٣٣.

الحلقة التاسعة

المصير والمبدأ

المصير والمبدأ

قد يتساءل المادي قائلاً: ما هذه الأجيال المتكاثرة الغفيرة؟ والأحياء المتدفقة ومن أين أتت؟ وإلى أين يذهبون؟ ولماذا؟ ولّما كانت الغفلة المطبقة لا يمكنها أن تجيب على تساؤله فإنَّه في حيرةٍ وتردّدٍ ثم يتحول هذا التردّد والحيرة إلى ظلماتٍ تغشى قلبه وروحه فيحس إحساساً قوياً بقلقٍ دائمٍ وخوفٍ مرعبٍ، بينما يرى المؤمن بنور الإيمان وبنعمته أنَّ تلك الجهة هي مبدأ الإنسان وأنَّ الله سبحانه وتعالى أرسله مكلِّفاً إيّاه بواجبٍ في دار الإمتحان هذه، ولينظر ويشاهد ويطالع غرائب وعجائب ومعجزات القدرة الربّانية المعروضة في معرض الكون وأنَّه سبحانه سيردَّه إلى عالم المكافأة والجوائز حيث يكافئه بمقدار ما فَهِمَ ووعى في الأرض من مطالعاته الكون ومن قيامه بواجبه المطلوب فللّه درّ الإيمان كم يورثنا من نِعَمٍ لا تُعَدّ ولا تُحصى مما يدفع هذا الإنسان إلى أن يردد مراراً وتكراراً «**الحمد لله على نعمة الإيمان**»، بل جُلّ النعم، فمن هذه الحقيقة وبهذا النوع من التفكير الإيماني يكون الحمد لله على نعمة الإيمان التي أزالت الظلمات من الجهات الست هو الآخر نعمة عظيمة تستلزم الحمد لله أيضاً إذ بـ «الحمدلله» تفهم درجة هذه النعمة ولذَّتها فالحمد لله على حمد الله في سلسلةٍ لا تنتهي من حمد الله رب العالمين.

فلا بُدَّ من حمد الله على نعمة الإيمان التي نوَّرت لنا الجهات الست، فكما أنَّ الإيمان بإزالته ظلمات تلك الجهات نعمةٌ عظيمةٌ من ناحية دفع البلايا كذلك هو نعمةٌ عظيمةٌ أيضاً لتنويره تلك الجهات من ناحية جلب المنافع، والإنسان يستفيد من نعمة الإيمان في علاقاته مع جميع المخلوقات وفي جميع تلك الجهات ومن ثم تأتي الآية الكريمة التي تملأ بصداها العذب أرجاء الكون الفسيح والتي يقول الله سبحانه وتعالى فيها: ﴿**فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ**﴾[1]، لتنوِّر للمؤمن المكرَّم جميع الجهات أينما اتجه وتتسع إلى ما لا نهاية له، حتى كان للمؤمن عمراً معنوياً طويلاً ممتداً من الخليقة إلى نهاية العالم، إذ يستمد ذلك العمر المبارك من نور الحياة ومن ارتباطه بقافلة المؤمنين المنطلقة مع أول مسلمٍ على وجه الأرض، وهكذا فإنَّ نور الإيمان هذا يحوّل عالمه الضيّق المحصور بين جداري الزمان والمكان إلى عالم فسيح مريح ويجعل الأزمنة كلها بماضيها ومستقبلها زمناً حاضراً في قلبه وروحه بإزالته البعد بينهما فيتحول العالم الفسيح بيتاً له، وكذلك إنَّها تقتضي الحمد لله على نعمة الإيمان لإحتوائه على نقطتين «الإستناد والإستمداد»، ونظراً لكثرة أعداء البشر أولاً ولمنتهى عجزه ثانياً فلا بُدَّ إنَّه محتاج غاية

(١) البقرة ١١٥.

الإحتياج إلى نقطة ٱستنادٍ يلتجئ إليها دائماً دفعاً لشر أعداءه الكثيرين، ونظراً لكثرة حاجاته وآماله مع شدة فقره ونواقصه فلا بُدَّ له من نقطة ٱستمداد لكي يُطَمئِن تلك الحاجات وتلك الآمال، فيا أيُّها الإنسان إعلم أنَّ نقطة ٱستنادك في عملك وجهادك إنَّما هي إيمانك بالله وحده، وأمّا نقطة ٱستمداد روحك ووجدانك فهي لا شكَّ إيمانك بالآخرة، ومما لا ريب فيه إنَّ الذي لاحظَّ له من تلك النقطتين فإنَّه يستوحش في قلبه وروحه ويعذبه وجدانه دائماً، أمّا الذي يستند إلى الإيمان بالله ويستمد من الثانية الإيمان باليوم الآخر فإنَّه لاشكَّ يحس في أعماق قلبه وروحه بلذائذ معنوية وأُنساً مسلياً وٱعتماداً وثيقاً يُطَمئن به وجدانه ويشرح فؤاده بسعادة لا يتصوَّرها غيره وقد لا يحلم بها أصلاً.

إنَّ الثمرة التي لا تُعرف شجرتها تنحصر لذّتها في تلك الثمرة فحسب، ولذلك فإنَّ لذّتها ستزول بمجرد أكلها تاركة وراءها أسفاً وحسرة، أمّا إذا عُرفت للثمرة شجرتها، فلا يمكن أن يحصل ذلك الألم والأسى بعد أكلها وفراقها، ذلك لأنَّ لها أصلاً باقياً معروفاً، وهكذا فإنَّ نور الإيمان يزيل الآلام الناتجة من زوال اللذائذ المشروعة وذلك بإظهاره وجود أمثالها ومجيئها من كنوز الرحمة الإلهية، ويؤمّن دوام النعم وعدم تناقصها بإظهار منابعها وخزائنها الربانية فيزيل ما يحصل

من آلام الفراق بإظهار لذّة تجدد المثال، إذ التفكر بزوال اللذّة يولِّد آلاماً كثيرة، فبنور الإيمان تذوب تلك الآلام ويتحول زوالها إلى ثمرات جديدة من أمثالها بلا ٱنقطاع.

إنَّ أشدَّ الحالات ضيقاً وهمّاً لروح الإنسان ما يتولّد من آلام الفراق وحسرات الوداع، فبهذا النور قد أودع الله ما يُذهب تلك الآلام.

إنَّ الإيمان يصوّر لنا بنوره ما يتصوره الإنسان في الموجودات ويتوهم أنَّها أعداء له وأنَّها أموات بلا حياة يصوّرها الإيمان إنَّها أحباب لنا وإخوان وأحياء مؤنسون وأنَّهم عباد مسبّحون، ذاكرون، فالغافل ينظر إلى موجودات العالم كالأعداء وهو في صراع دائمٍ معها لا يستوحش من كلِّ شيء ولا يلتفت إلّا ويرى نفسه بين غرباء يضمرون له العداء والشر، ذلك لأنَّ علاقة الأخوّة بين الأزمنة الماضية والمستقبلية في نظر أهل الضلالة مقطوعة فتتحول تلك الأخوّة إلى حاضر جزئي محدود فأخوّتهم إن دامت فهي كدقائق معدودة.

أمّا إخوّة الإيمان فإنَّها تمتد وتمتد إبتداءً من مبدأ الماضي وٱنتهاءً إلى منتهى المستقبل، وإذا ترى الضلالة وأهلها أنَّ الكائنات كلها أموات موحشة يرى الإيمان وأهله أنَّها مخلوقات ذات روح وحياة فيستأنس بها فيتجاوب معها بلغة المحبة والإيمان والفطرة، ذلك لأنَّ الله تعالى قال

في كتابه الكريم: ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾[١]، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾[٢]، ففي كلِّ شيء حياة على حدّه وقدرِه، فلا وحشة ولا خوف في نظر الإيمان.

إنَّ الله عزَّ وجلَّ خلق الكون والمخلوقات على أتمِّ خلقة، فالحمد لله على نعمه، وبالأخص على نعمة الإيمان.

(١) النور ٤١.
(٢) الإسراء ٤٤.

الحلقة العاشرة

الصبر على الفقر ومرارته

الصبر على الفقر ومرارته

إنَّ الصبر على البلاء أحد أهم النعم التي تستحق الشكر والحمد المتواصلين وقد رُوي أنَّ الله تعالى قال لموسى عليه السلام: «**إذا رأيتَ الدُّنيا مقبلةً عليك فقُل: إنّا لله وإنّا إليه راجعون عقوبةٌ عُجِّلَت في الدُّنيا، وإذا رأيت الدُّنيا مدبرةً عليك فقُل: مرحباً بشعار الصالحين**»، وعن رسول الله صلى الله عليه وآله أنَّه قال: «**إنَّ الفقر خزينةٌ من خزائن الله تعالى وأُخرى أنَّه كرامة من الله تعالى وثالثة إنَّه شيءٌ لا يعطيه الله إلّا نبيّاً مُرسَلاً أو مؤمناً كريماً على الله تعالى**»، وورد أنَّ الفقر زينة المؤمن وأنَّ أكثر أهل الجنة الفقراء والمساكين وليس فيها أحدٌ أقلّ من الأغنياء، وأنَّ العبد كلما ٱزداد إيماناً ٱزداد فقراً في معيشته، وقيل أنَّ للجنة غرفاً من ياقوتةٍ حمراء ينظر أهل الجنة إليها كما ينظر أهل الأرض إلى نجوم السماء، لا يدخلها إلّا نبيٌّ فقير أو شهيدٌ فقير أو مؤمنٌ فقير، وأنَّ الفقراء ملوك الجنة، وأنَّ الناس كلَّهم مشتاقون إلى الجنة والجنة مشتاقة إلى الفقراء، ورُوي أيضاً يوم القيامة ينادي منادٍ أين فقراء المؤمنين؟ فيقوم عُنُقٌ[1] من الناس فيخاطبهم الرَّب اذ يقول: «**وعزَّتي وجلالي وعُلُوّي وآلائي وٱرتفاعي ومكاني ما حسبت شهواتكم في دار الدُّنيا هواناً بكم عليَّ**

(١) عُنُقٌ: جماعة.

ولكن إدَّخرته لكم لهذا اليوم»، وللفقر الممدوح شرائط منها التعفف على وجه يحسبه الجاهل غنيّاً، يقول تعالى: ﴿**لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا**﴾[1]، فعليه إظهار التجمل والغنى بين الناس وأن لا يشكو حاجته وفقره لأحدٍ إلّا لضرورةٍ ٱضطر إليها، ولو ضاق صدره أظهره عند صديق أو أخٍ مؤمن مترجياً منه ترتُّب الأثر وإن كان الإخفاء أولى لأنَّه إذا كتمه عن الناس كان حقاً على الله أن يرزقه وإذا بثَّه لغير الله تعالى ٱستهالوه[2] ولذا قال لقمان لإبنه: «**يا بُنَي ذقتُ الصبر وأكلتُ لحاء الشجر - أي قشرَه - فلم أجد شيئاً هو أَمَرُّ من الفقر، فإذا بُليتَ به يوماً فلا تُظهر الناس عليه فيستهينوك ولا ينفعوك بشيء، فٱرجع إلى الذي ٱبتلاك به فهو أقدر عليه وٱسأله فمن ذا الذي سأله فلم يعطهِ أو وَثِقَ به فلم يُنجه**»، فلا بُدَّ من القناعة بما قسمه الله تعالى ومنها الصبر والرضا بما قدَّره الله، وقد ورد عن مولانا الإمام الصادق عليه السلام أنَّه قال: «**جاء جبرئيل عليه السلام إلى النبي صلى الله عليه وآله فقال يا رسول الله إنَّ الله أرسلني إليكَ بهدية لم يعطها أحداً قبلك، فقال الرسول صلى الله عليه وآله وما هي؟ قال جبرئيل عليه السلام إنَّها نعمة الصبر وأحسن منه،**

(١) البقرة ٢٧٣.

(٢) ٱستهالوه: أي رأوه مهولًا.

قلت وما هو؟ قال: القناعة وأحسن منها، قلت وما هو؟ قال نعمة الرضا... إلى أن قال: الراضي هو الذي لا يسخَط على سيِّده، أصاب من الدُّنيا أو لم يصب ولم يرضَ من نفسه باليسير من العمل»، والرضا بالقضاء مرتبة ونعمة عظيمة ينبغي المجاهدة في تحصيلها والشكر والحمد عليها كما أنَّ خلافه من أسوأ الأخلاق الرَّدية، ولذا قال تعالى في حديثه القدسي: «**من لم يصبر على بلائي ولم يرضَ بقضائي فليتخذ ربّاً سواي وليخرج من أرضي وسمائي**»، وورد أيضاً: «**أنَّ من رَضِيَ برزق الله لم يحزن على ما فاته وأنَّ من سخط على رزقه وبثَّ شكواه ولم يصبر لم ترفع له إلى الله حسنة ولقي الله تعالى وهو عليه غضبان**»، فعلينا بالسعي في طلب الرزق وطيب النفس بالقسمة والقضاء وشكر الله على النعم وعدم السخط وبث الشكوى، فيجب على الإنسان أن يكون شاكراً على كل حال من الحالات في الرخاء والشدة والضيق والسعة، فقد قرن الله تعالى الصبر بالشكر في القرآن المجيد ووعد الشاكرين بالمجازاة بالفضل والمَنِّ وأوعد على الكفران بالعذاب الشديد، قال تعالى: ﴿**لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ**﴾[1] وقوله أيضاً: ﴿**وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ**﴾[2]، وأيضاً لا بُدَّ من

(١) لقمان ٣١.

(٢) إبراهيم ٥.

أن يكون شائقاً للفقر طيِّب النفس به، لأنَّ رئيس الأغنياء قارون خُسِفَ به ورئيس الفقراء عيسى عليه السلام رفعه الله إليه، فعلى كل إنسان أن يكون ممتثلاً لأوامر الله ونواهيه ولا يتجاوز بسبب الفقر عما عليه من الطاعات ولا يمتنع من التصدق بالمقدور، وكذلك يجب أن لا يخالط الأغنياء ولا يتواضع لهم لغناهم، فقد رُوي: «**أنَّ من دخل بيت غني فتواضع له لأجل غناه ذهب ثلث دينه وفي روايةٍ نصف دينه وفي روايةٍ ثلثا دينه**»، ورُوي في تفسير قوله تعالى: ﴿**لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ**﴾[1]، عن الإمام الصادق عليه السلام: «**لما نزلت هذه الآية، قال الرسول صلى الله عليه وآله مَن لم يتعزَّ بعزاء الله تقطَّعت نفسه حسرات، ومن رمى بصره إلى ما في يد غيره كَثُرَ همّه ولم يشف غيظه ومن لا يعلم أنَّ لله عليه نعمة إلّا في مطعمٍ أو ملبسٍ فقد قصر عمره ودنا عذابه، ومن أصبح على الدُّنيا حزيناً أصبح على الله ساخطاً ومن شكى مصيبة نزلت به فإنّما يشكو ربَّه**»، وكذلك لا بُدَّ من اجتناب مورثات الفقر وموجبات الغم والحزن ومورثات النسيان ومقصِّرات العمر بل المواظبة على موجبات سعة العيش والراحة من غير ضيق ومنفيات الفقر والفاقة ومزيدات الرزق ومطيلات العمر،

(١) الحجر ٨٨.

وكذلك لا بُدَّ من أداء حقوق المؤمن، فإنَّ للمؤمن على أخيه حقوق لا براءة له منها إلاّ بأدائها أو العفو عنها.

فلا بُـدَّ من أن نشكر الله على كل نعمةٍ وبـلاء، فالصبر والفقر والقناعة كلها نِعَمٌ تستوجب الحمد والشكر، وأمّا الغني فإدائه لواجب الشكر إنّما يكون بأداء حقوق الفقراء التي جعل الله لهم فيها حقاً من أمواله وإلّا فستكون أموالهم هذهِ قطع من النار تكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم في نار جهنم، فلنتوجه إلى الله بشكر النعم صغيرها وكبيرها وبكل شدةٍ ورخاءٍ فاليوم لنا وغداً علينا.

الحلقة الحادية عشر

الأغنياء لا يشكرون الله

الأغنياء لا يشكرون الله

إنَّ الأغنياء ورغم النعم الكبيرة التي بين أيديهم يتعمدون أحياناً الإمتناع عن الشكر والحمد وذلك بعدم إخراج حقوق الفقراء من أموالهم، لأنَّ الطمع والحرص والبخل لدى بعضٍ منهم قد أخذ منهم مأخذاً، وهذ قصة قصيرة عن الغني والفقير تدل على ذلك، حيث يروي أحد الرواة ويقول: مررتُ ليلة أمس برجلٍ بائسٍ فرأيته واضعاً يده على بطنه كأنَّما يشكو ألماً، فرثيت لحاله وسألته ما باله؟ فشكا إليَّ الجوع فأخذتُ أسكِّن ألَمَهُ وغيظَه ببعض ما قدرت عليه، ثم تركتُه وذهبت إلى زيارةٍ صديقٍ لي من أرباب الثراء والنعمة فأدهشني أنَّه واضعٌ يده على بطنه أيضاً ويشكو ألماً، فهل يا ترى هو الألم نفسه الذي يشكو منه ذلك الرجل الفقير؟ نعم إنَّه يشكو ألماً في بطنه أيضاً ولكن ليس ألم جوعٍ وإنَّما ألمُ الشبع والتخمة! فيا للعجب! لو أعطى ذلك الغني ذلك الفقير بما فضَّل الله من حاجته من الطعام لما كان شكى واحدٌ منهما سقماً ولا ألماً، لقد كان جديراً به أن يتناول من الطعام ما يُشبع جوعته ويطفئ علَّته ولكنه كان محبّاً لنفسه مُغالياً بها فضمَّ إلى مائدته ما أختلسه من صحن الفقير فعاقبه الله على قسوته بالبطنة حتى لا يهنأ للظالم ظلمه ولا يطيب عيشه وهكذا يصدق المثل القائل: «**بطنةُ الغني أنتقامٌ لجوع**

الفقير»، فما ضنّت السماء بمائها ولا شحَّت الأرض بنباتها ولكن حَسَدَ القويُّ الضعيفَ عليهما فزواهما أي «مَنَعَه إيّاهما» فأصبح فقيراً مُعدَماً شاكياً متظلماً غرماؤه المياسير الأغنياء لا الأرض ولا السماء، فكيف لهؤلاء الأقوياء أن يتصوروا حجَّتهم في أنَّهم أحقُّ بإحراز المال وأولى بٱمتلاكه من الضعفاء، وإن كانت القوة حجَّتهم عليه فلِمَ لا يملكون بهذه الحجة سلب أرواحهم كما ملكوا سلب أموالهم؟ وما الحياة في نظر الحي بأثمن قيمة من اللّقمة في يد الجائع وإن كانت حجَّتهم أنَّهم ورثوا ذلك المال عن آبائهم فما أظلم الأقوياء من بني الإنسان وما أقسى قلوبهم ينام أحدهم ملء جفنيه على فراشه الوثير ولا يقلقه في مضجعه إنَّه يسمع أنين جاره وهو يرعد برداً ويجلس أمام مائدة حافلة بصنوف الطعام قديدِهِ وشوائهِ، حلوهُ وحامضهُ، وبين أقربائه وذوي رحِمِه من تتواءب أحشاؤه شوقاً إلى فُتات تلك المائدة، بل إنَّ منهم من لا تخالط الرحمة قلبه ولا يعقد الحياء لسانه فيظل يسرد على مسمع الفقير أحاديث نعمته وربَّما ٱستعان به على عدِّ ما تشتمل خزائنه من الذهب وصناديقه من الجواهر وغُرَفُهُ من الأثاث والريش ليكسر قلبه وينغِّص عليه حياته وكأنَّه يقول له في كل كلمةٍ من كلماته وحركةٍ من حركاته: «أنا سعيد لأنَّني غني وأنت شقي لأنَّك فقير»، ولولا أنَّ الأغنياء في حاجة الفقراء

ويستخدمونهم كما يستخدمون أدوات منازلهم ويسخرون بمطالبهم لاستهزؤوا أكثر بهم ولحرموهم الحياة كما حرموهم لذّة العيش فيها، إنَّ الإنسان لا يمكن أن يُسمّى إنساناً حتى يكون محسناً فالناس ثلاثة: رجلٌ يُحسن إلى غيره ليتخذ إحسانه إليه سبيلاً إلى نفسه وهو المستبد الجبار الذي لا يفهم من الإحسان إلّا أنَّه يستعبد الإنسان، ورجلٌ يُحسِن إلى نفسه ولا يُحسِن إلى غيره وهو الشَرِه المتكالب الذي لو علم أنَّ الدم السائل يستحيل إلى ذهبٍ جامدٍ لذبح في سبيله الناس جميعاً، ورجل آخر لا يحسن إلى نفسه ولا إلى غيره وهو البخيل الذي يُجيع بطنه ليشبع صندوقه، وأما الرابع الذي يُحسِن إلى غيره ويُحسن إلى نفسه فلا نعلم له مكاناً ولا نجد له سبيلاً لأنَّه نادر في عصره، فكن رحيماً أيُّها الإنسان وأشعر قلبك الرحمة ليكن قلبك الرحمة بعينها، ستقول مثلاً إنّي غير سعيد لأنَّ بين جنبيَّ قلباً يلمُّ به الهمّ مالا يلمُّ بغيره من القلوب، أجل، فليكن ذلك، ولكن أطعم الجائع وأكسِ العاري وعَزِّ المحزون وفرِّج عن المكروب، ليكون ذلك من هذا المجموع خير عزاء يعزيك عن همومك وأحزانك، ولا تعجب أن يأتيك النور من سواد الحُلُك، فالبدر لا يطلع إلّا إذا شُقَّ رداء الليل، والفجر لا يدرج إلّا من مهد الظلام لقد بَلِيَت اللذائذ كلّها، ورثَّت حبالها وأصبحت أثقل على النفس من

الحديث المُعاد ولم يبقَ ما يعزّي الإنسان عنها إلّا لذةٍ واحدةٍ هي لذة الإحسان أو نعمة الإحسان، فمنظر الشاكر منظرٌ جميلٌ جذّابٌ ونغمة ثنائه وحمده أوقع في السمع من العود، فالرحمة كلمة صغيرة ولكن بين لفظها ومعناها من الفرق مثل ما بين الشمس في منظرها والشمس في حقيقتها فلو تراحَمَ الناس لما كان بينهم جائع، ولأُقفرَت الجفون من المدامع، ولاطمأنَّت الجنوب في المضاجع ولَـمُحِيَت الرحمة والشقاء من المجتمع كما يمحو لسان الصبح مداد الظلام، وإنَّ الله لم يخلق الإنسان ليقتِّر عليه رزقه ولا ليموت جوعاً بل أرادت حكمته أن يخلقه ويخلق له فوق بساط الأرض وتحت ظلال السماء ما يكفيه مؤونته ويسد حاجته ولكن سلبه الرحمة فبغى بعضهم على بعض وغدرَ القوي الضعيف فتغير نظام القسمة العادلة وتشوَّه وجهها الجميل، فلو كان للرحمة سبيل إلى القلوب لما كان للشقاء إليها سبيل، أليس هذا كله نتيجة عدم الشكر على نِعَم الإله ومقابلتها بالجحود والنكران؟ فالمولى حبانا بقلادة من النعم تطوِّق حياتنا، فأينما إتجهنا وأينما ذهبنا نجد آثار النعم حولنا ظاهرة فالصحة والرحمة والصبرعلى الفقر والبلاء كلّها نِعَمٌ تستوجب الشكر صباحاً ومساءً، لذلك على الأغنياء أن يرحموا من في الأرض ليرحمهم من في السماء.

الحلقة الثانية عشر

معرفةُ اللّٰه

معرفة الله

إنَّ المؤمن يعلم بنور الإيمان أنَّ أعظم نعمةٍ في الوجود هي معرفة الله فهي نعمةٌ لا تفوقها نعمة إذ هي منبعُ كل أنواع النعم التي لا نهاية لها، فيلزم الحمد بعدد ذرات العالم على نِعَم الإيمان هذه، لأنَّ الألف واللام تتضمن جميع النِعَم التي تستوجب الحمد.

- منها نعمة «أنَّه رحمٰن» التي تتضمن نِعَماً بعدد ما تتعلق الرحمة بذوي الحياة فالإنسان له علاقة بجميع الأحياء وتسعد فطرته بسعادتهم وتتألم بآلامهم، فالنعمة للفرد هي نعمة للناس جميعاً.

- ومنها نعمة «أنَّه رحيم» التي تتضمن نعماً بعدد الأطفال الذين يتمتعون بعطف أمهاتهم والتي تستوجب الحمد والثناء.

فكما أنَّ كل من له فطرة سليمة يتأثر ويتألم ببكاء طفل يتيم، كذلك لا بُدَّ أنَّه يتنعَّم ويتذوَّق ويتلذَّذ بنعمة ورحمة الأمهات لأطفالهن فما هذه الأذواق إلّا نعمةً عظيمةً تستلزم الحمد والشكر.

- ومنها أيضاً نعمة «أنَّـه حكيم» فهي نعمةٌ تستوجب الحمد والشكر بعدد أفراد وأنواع الحكمة المندمجة في جميع الكائنات والكون إذ كما أنَّ نفس الإنسان تتنعَّم بالأنوار الرحمانية وقلبه بالتجليّات الرحيمية

كذلك يتذوَّق عقله اللطائف الحكيمية فالحمد لله ملء الفم بالقلب والنفس والعقل، وكذلك نحمده حمداً يملأ صداه الفضاء على نعمة الحفظ أي «أنَّه الحفيظ» لأنَّ دوام النعمة أعظم من النعمة نفسها وبقاء اللذة ألذّ من اللذة نفسها والخلود في الجنة نعمة تفوق الجنة نفسها، فنعمة معرفتنا أنَّه الحفيظ سبحانه وتعالى تتضمن نِعَماً أكثر وأزيد وأعلى من جميع النِعَم الموجودة في الكائنات، وهكذا فقِسْ على ٱسم الرحمن الرحيم الحكيم الحفيظ سائر أسمائه الحسنى، إذ إنَّ في كل إسمٍ من أسمائه نِعَماً لا نهاية لها تستوجب حمداً لا نهاية له ومنها نعمة الإسلام والقرآن الكريم الذي فجَّر لنا منابع جميع أنواع النعم المادية والمعنوية مما يستلزم حمداً لا متناهياً، ومنها نعمة محمدٍ ﷺ التي تستوجب حمداً لا نهاية له إذ هو الوسيلة لنعمة الإيمان وفتح كنوز النِعَم كلُّها فهو أعظم نعمةٍ وفضلٍ تظلُّ البشرية مدينةً له بالحمد والثناء إلى الأبد، فكتاب الكون هذا بجميع أبوابه وفصوله وبجميع صحائفه وما تحويه من سطور وبجميع كلماته وحروفها كل بقدر نسبته من أصغر نقشٍ إلى أعظمه يحمده سبحانه وتعالى ويسبِّحه بإظهار أوصاف جلال قائله الأحد الصمد وكلُّ حرف فيه يثني بإظهار أنوار أوصاف جمال كاتبه الرحمن الرحيم وكل ما في الكون من نقاط ونقوش هي مرايا لتجليات أشعة أسماء من له الأسماء

الحسنى ﷻ ولا إله غيره، إنَّ للشكر على النعمة نتائج كبيرة وكثيرة منها الربح الدنيوي والأخروي، فالأرزاق الزائلة تثمر بالشكر لذائذ دائمة وثمرات باقية أما النعم الخالية من الشكر تنقلب من صورها السامية الجليلة الجميلة الزاهية إلى صورةٍ دميمةٍ.

حقاً إنَّ الرزق صورة وضّاءة تستحق الحب والعشق تلك التي تظهر بالشكر وإلّا فإنَّ عشق الغافلين والضالين للرزق وتَلَهُّفهم له ما هو إلّا بهيمة حيوانية، فلنَقِس على هذا لنعلم مدى خسارة أهل الضلالة والغفلة ومدى فداحة أمرهم، إنَّ أشدَّ الأحياء جوعاً إلى الرزق وإلى أنواعه إنّما هو الإنسان فالحقُّ سبحانه وتعالى قد خلق هذا الإنسان مرآة جامعة لجميع أسمائه الحسنى وأبدعه كمعجزة دالةٍ على قدرته المطلقة فهو يملك أجهزة يتمكن بها من تثمين وتقدير جميع مدَّخرات خزائن رحمته الواسعة ومعرفتها، وخَلَقَهُ على صورة خليفة الأرض الذي يملك من الأرض الأجهزة الحساسة بحيث تتمكن من قياس أدق دقائق تجليات الأسماء الحسنى فلأجل كل هذا فقد أودع سبحانه في هذا الإنسان طاقة لا حدَّ لها وجعله محتاجاً إلى أنواع لا تُعَدّ من الرزق المادي والمعنوي، وما الوسيلة التي تمكِّن الإنسان من العروج بها إلى أسمى مقام وهو مقام «أحسن تقويم» ضمن ما يملكه من الجامعية إلّا الشكر

فإذا إنعدم الشكر يتردى الإنسان إلى أسفل سافلين ويكون مرتكباً ظلماً عظيماً، وخلاصة القول أنَّ الشكر هو أعظم أساس من الأسس الأربعة التي يستند إليها سالك أسمى طريق وأعلاه ألا وهو طريق العبودية والحب لله تعالى وقد عبَّر عن تلك الأسس الأربعة: بالعجز المطلق والفقر المطلق والشوق المطلق والشكر المطلق.

فالحمد من الله، بالله، على الله، لله، بعدد ضرب الكائنات من أول الدُّنيا إلى آخر الخلقة، من الأزل إلى الأبد والحمد لله على نعمة القرآن والإيمان بعدد ذرات ضرب وجودنا، وسبحانك لا علم لنا إلّا ما علَّمتنا إنَّك أنت العليم الحكيم.

الفهرس

الحلقة الأولى: وجوب الشكر على النِعَم..... ٥

الحلقة الثانية: النهي عن الإسراف..... ١١

الحلقة الثالثة: الإقتصاد سبب العزَّة والكمال..... ١٩

الحلقة الرابعة: نتائج الإسراف..... ٢٥

الحلقة الخامسة: القناعة..... ٣١

الحلقة السادسة: الحرص ووخامة عاقبته..... ٣٧

الحلقة السابعة: الأرزاق والآجال..... ٤٥

الحلقة الثامنة: فوائد الحمد والشُكر للمولى..... ٥٣

الحلقـة التاسعة: المصير والمبدأ..... ٦١

الحلقة العاشرة: الصبر على الفقر ومرارته..... ٦٩

الحلقة الحادية عشر: الأغنياء لا يشكرون الله..... ٧٧

الحلقة الثانية عشر: معرفةُ الله..... ٨٣